

الأمنية الموءودة



الشمس منغمسة في الضحك هذا الصباح البنفسجي، على وقع أنغام الدِّيكَة المحاصرة أجواء خضرة الريف، وتقفز متدحرجة لتصل أذني عمي الطيّب، الذي مازال مُمدّداً على سريريه، وحبّات الكرى لم تفارق جفونه الناعمة.. الساعة تشير إلى تمام الساعة صباحاً، موعد ذهابه إلى عمله بصفته معلّماً في إحدى المدارس، وبعد لحظات تُناديه زوجته المصون "الطيّب.. الطيب هيساً قم وأسرع"، وكانت رائحة الخبز الشهية تنبعثُ من المطبخ، فقام بسرعة البرق، وتناول فطوره مع زوجته وأولاده، ثمّ حوّل وجهته إلى عمله ومدرسته، وكلّاه حُبور لتزويدهم بما تبقى من عصارة جهوده، وثمار حصاده المرير في مجال التربية والتعليم، الذي قضى فيه رَدْحاً طويلاً من الزمن، حيث يوجد ولا يبخل بما حَبَّاهُ من فوانيس العلوم النورانية، ليُضيء بها دروب تلامذته. ويتوق عمي الطيّب طرباً إلى نجاح تلامذته كل سنة، وكلهم يعترفون بجميل صنيعه، ورحيق إخلاصه. عمي الطيّب يناشد أبناءه التلامذة ويشجعهم على المضي قُدماً لنَيْلِ المراتب المشرّفة في دراستهم، يناشدهم بقوله: "أبنائي الأعزاء، يعز عليّ فراقكم بعد كل هذه السنين، التي قضيتها برفقة فراشات أحلامكم القرمزية".. ويصمتُ مَلِيّاً وتنسكب دمعتان صافيتان من مآقيه.. وبصوت أجَشٍّ يُكمل حديثه: "أولادي، تأسّفت كثيراً لهجرة أشباح الود النابعة من زنازين صمتي الخافت.. أولادي ويا ثمرة أزاهير المستقبل، ويا هبة السماء.. أستمحكم لأنني ذقت طعم الراحة من عبَق أرواحكم النديّة.. أحبكم وفؤادي المكلم يصطلي بنار خَبَا سعيها كَمداً لفراقكم..

أبنائي يداي الحانيتان ودّعتا دفناً ساطعاً طالما احتضنتاه؟ أبنائي بعد أيام معدودات، سيُقام حفل بمناسبة إحالتي إلى التقاعد.. سيقومون بتكريمي بعد سنوات العطاء التربوي الذي سقيت به طمأ العطش لأتراككم. أعزائي كل ما أتمنّاه وأشتهيه الآن من شَدَق الأيام، هو رغبتني الجامعة في إرسالني من طرف هذه المؤسسة لزيارة بيت الله الحرام.. أودّ عكم يا أبنائي على أمّ ل اللقاء بكم مُتوجّين بأكاليل النجاح. أبنائي.. شكراً لشطايا ابتساماتكم الرقيقة.. شكراً لأجراس أسماعكم الطليقة". واغرورقت عيناهُ بالدموع التي جرت ساخنة بين دروب وجنّتيه وعاد أدراجهُ، ودقات قلبه سائلة له: "تُرى ماذا سيكون طعم الاحتفال يا ترى؟ وهل من مفاجآت سارّة تنتظرني، وهل من براعم بريئة تُقبّلني؟". وبعد لحظات وصل إلى منزله المتواضع، وكان في استقباله زوجته رقيقة الوفية التي تحملت وعذّاء أوراقه، وكراساته المتناثرة هنا وهناك.. فقدمت له كوباً من الشاي الأخضر، فأومأ برأسه وأردف قائلاً: "زوجتي العزيزة.. سيتم تكريمي في حفل الخميس المقبل، بمناسبة نهاية مشواري المهني والتربوي سأحال إلى التقاعد، ولا أدري ما طبّق ألوان جائزتي"، فقاطعت زوجته رقيقة قائلة: له: "لا تقلق يا زوجي فعيون السماء تحرسك وعناية الإله تحتضنك". وأتّى يوم الخميس مسرعاً، وها هو عمي الطيّب يرتدي بدلته الأنيقة.. وبسرعة يَلج قاعة الحفل ويجلس بتواضع وبكل تودّة. وبعد دقائق فوجئ بالسيد مدير المدرسة، ينثر عليه وابلاً من الشكر والتفاني في مشواره في حقل التعليم، ويُسَلّمه شهادة تقدير وعرفان، وطقماً خاصاً بالقهوة.. فذُهل وتسمّر في مكانه كئيباً.. ثمّ عاد أدراجهُ حاملاً مع وزير الجائزة الحقيمة.. فهدّأت زوجته من روعه، وأحيّت في قلبه زهرة بيضاء سقتها له بماء الصبر. أما عمي الطيب المعلم والإنسان الطيب، فقد ذرف دموعاً غسّلت أجفان وجهه الخَمَرِي، ثمّ استفاق برهة من كوابيس اليقظة التي سحفتها مرارة الأيام، وطمستها أنامل الأقلام، واندثرت أمنيته الموءودة، وانتحر أمله المتبرّج، وترسّبت في ذهنه بقايا من ذكريات المدرسة وروائح الطباشير. وتذكّر كلمات دوّنها بماء الذهب، وسقاها بعطر الحب.. "أبنائي يداي الحانيتان قد ودّعتا دفناً طالما احتضنتاه؟ أستمحكم يا أبنائي.. لأنني ذقت طعم الأمل بين أرواحكم، ونمتُ طويلاً بين بساط أفئدتكم". *أم البواقي/ الجزائر